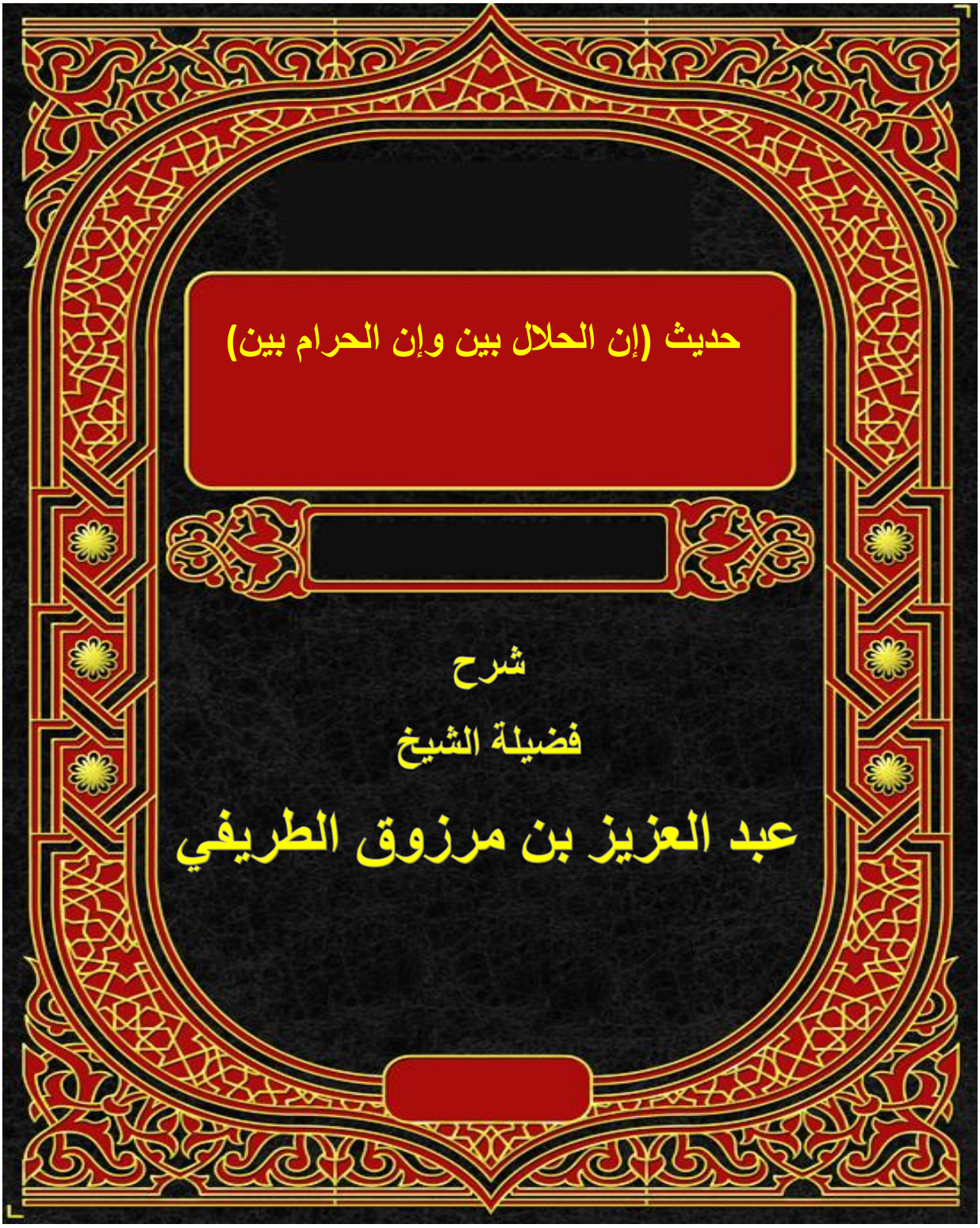
حديث (إن الحلال بين وإن الحرام بين)
شرح
فضيلة الشيخ
عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

تفريغ الدرس الأول

من أحاديث رسول الله الجامعة: (الحلال بين والحرام بين) وهو نص شريف يبين انقسام التكليف إلى حلال وحرام وشبهة ينبغي أن تترك خشية الوقوع في الحرام؛ فأهل العلم في الناس قلة، والأولى بالإنسان أن يبتعد عن الأسباب التي تخل بدينه وتنال عرضه بالسوء.

- **الإحكام والتشابه في الشريعة الإسلامية**

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأصل الأحكام وأصول التشريع وفروع الإسلام جلها من المحكمة لا من المتشابهة، وهذا في أكثر أمور الدين، فقد جاء هذا عن رسول الله ﷺ، وجاء في كلام الله عز وجل في وصف الكتاب العظيم أنه كتاب مبين، قال الله عز وجل: ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [يوسف:1]، وجاء في قوله: ﴿ طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [الشعراء:1-2] أي: واضحاً بيناً لا يأتيه الباطل ولا الاشتباه من بين يديه ولا من خلفه، وهذا ظاهر متقرر، وبهذا كان اكتمال الدين وإظهار المنة به، كما في قول الله عز وجل: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة:3].

فإتمام النعمة وإكمال الدين وإظهار المنة به لا يكون مع وجود المتشابه وغلبته على المحكم، بل إن الله عز وجل قد أوجد متشابهاً في كتابه، وجعل ذلك لحكمة، وهي أن يميز الله عز وجل الخبيث من الطيب، وكذلك أن يكل العلماء العلم به إليه حتى يقولوا: ﴿ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران:7] فيؤمنون بالمتشابه الذي لا تدركه عقولهم، وإن كان هو قد أنزل في كلام الله عز وجل، وجاء في كلام رسول الله ﷺ، فيؤمنون ويصدقون بما جاء من المحكم، ويكلون ما لا يعلمونه من المتشابه إلى الله سبحانه وتعالى؛ بياناً أن العلم مهما انتشر في الناس إلا أن قصورهم -وإن كان في أحكام الله عز وجل- ظاهر بين، أما من جهة التكليف وظهور العقاب والثواب والحساب فيكون بالمحكم، ومن علم ممن علم ممن وفقه الله عز وجل لمعرفة المتشابه.

وينبغي بل يجب أن يعلم أن الأصل في الدين أنه محكم بين ظاهر لا يخفى على أحد، فقد أقام الله الحجة، وجعل الأعذار تنقطع بسماع الإنسان لكلام الله، كما قال الله سبحانه وتعالى -آمراً نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله-: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ [التوبة:6]، فقد بين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أن مجرد السماع بلغة يفهمها الإنسان وعلى وجه يفهم المراد -لو أراد- أنه قد قامت عليه الحجة، وانقطع عذره بمجرد السماع؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام -كما في صحيح الإمام مسلم وغيره-: (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا أدخله الله النار) فمجرد السماع ينقطع به العذر؛ لأنه بهذا السماع دليل على أن الأصل ببلوغ الألفاظ إلى المسامع الفهم؛ لأن الله عز وجل قد أنزل القرآن واضحاً بيناً لا لبس فيه، وهذا هو الذي يفهمه جمهور الناس وعامتهم، إلا قليلاً ممن قد استغلق عليه، أو دخلت عليه عجمة، أو بعد عن مقاصد الشرع، أو خرج عن فطرته فلم يكن على

الفطرة التي فطر الله عز وجل عليها الناس بمغير من المغيرات؛ ولهذا جعل الله عز وجل جمهورهم على فطرة سليمة يفهمون مراد الشرع من سماعه، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم:30]، وقال النبي عليه الصلاة والسلام –كما في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة–: (ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودناه أو ينصرانه أو يمجسانه) وجاء في رواية (أو يمسلمانه) يعني: من جهة الأفعال التي قد زيدت عن الفطرة مما يوافق أصل الفطرة في قلب الإنسان.

وفي الحديث: (الحلال بين والحرام بين) هذا هو المراد في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [آل عمران:7] أي: هذا هو الأصل في الدين، وأما المتشابه فيوجد، والحكم منه عظيمة جليلة: بيان أن الكمال المطلق في العلم لله سبحانه وتعالى ليس لأحد غيره، كذلك بيان أن الناس يتفاوتون، وينبغي أن يطلبوا العلم ويلتمسوه من مظانه، وبفهم أقرب الناس إلى التشريع وهم الصحابة عليهم رضوان الله تعالى وكذلك التابعون، ثم من جاء بعدهم أقرب إلى الدليل وفهمه من غيرهم؛ لهذا أثنى رسول الله ﷺ على أصحاب القرون الأولى كما قال النبي عليه الصلاة والسلام في الصحيح: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)، وجاء في رواية قد تكلم فيها بعضهم: (خير القرون قرني).

القواعد التي عليها مدار الدين

أحكام الشريعة الأصل فيها الظهور وعدم الخفاء، وثمت قواعد وأصول عليها مدار الدين ومدار الأحكام على وجه العموم في جميع الفنون والعلوم ينبغي إدراكها.

تحريم القول على الله بلا علم

القاعدة الأولى: تحريم القول على الله بلا علم، وقد جاء النص عليها في كلام الله سبحانه وتعالى كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ ﴾ [الأعراف:33] إلى قوله: ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:33].

الأصل فيما سكت الله ورسوله عنه الإباحة

القاعدة الثانية: أن ما سكت الله عز وجل عنه ورسوله عليه الصلاة والسلام الأصل فيه الإباحة، ولا يجوز لأحد أن يتجرأ عليه بتحريم إلا بدليل وأثر من كتاب أو سنة، كما قال الله عز وجل في كتابه العظيم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة:101]، وقال النبي عليه الصلاة والسلام كما في الصحيح: (وسكت عن أشياء رحمة بكم فلا تسألوا عنها).

اتباع المتشابه من كلام الله وكلام رسوله طريقة أهل البدع

القاعدة الثالثة: أن اتباع المتشابه من كلام الله سبحانه وتعالى، وكلام رسول الله ﷺ وتنكب المحكم هذه طريقة أهل البدع والضلال من الرافضة وأهل الأهواء وغيرهم الذين يأخذون من كلام الله وكلام رسول الله ﷺ المتشابه، ويدعون المحكم؛ ولهذا قال الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران:7]، (فإذا رأيت الرجل يتبع المتشابه من كلام الله وكلام رسول الله ﷺ –مع ظهور الآيات والأحاديث المحكمة الظاهرة البينة– فاعلم أنه ممن سمى الله فاحذره) كما قالت عائشة عليها رضوان الله تعالى في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن أبي مليكة عن القاسم عن عائشة عليها رضوان الله تعالى.

وذلك أن الله عز وجل قد بين أن الإنسان إذا علم من سيرته ومن أقواله أنه يتتبع المتشابه ويدع المحكم من أقوال الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ فاعلم أنه من أصحاب الزيغ ومن في قلبه مرض.

انقسام الشريعة إلى محكمات ومتشابهات والمحكمات إلى حرام بين وحلال بين

القاعدة الرابعة: أن رسول الله ﷺ قد بين أن الشريعة على قسمين كما في حديث النعمان بن بشير هنا (الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات) إذاً هي على ضربين: بينات واضحات، ومتشابهات، والبينات الواضحات على ضربين: حلال بين، وحرام بين.

والإطلاق في الشرع من جهة المحكم والمتشابه يطلق ويراد به إطلاقان: إطلاق عام، وإطلاق خاص، والمراد بإطلاق المحكم من جهة الخصوص هو ما كان مقابلاً لمنسوخ، ولا يلزم منه أن يكون ناسخاً، فكل ما كان من كلام الله عز وجل يقابل المنسوخ فهو محكم على وجه الخصوص، وأما ما كان على وجه العموم فهو ما لا يأتي إليه إلا فهم واحد، ولا يقع عند العلماء إلا على وجه واحد، فهذا هو المحكم من وجه العموم، ويقابله المتشابه وله إطلاقان: إطلاق على وجه الخصوص، وإطلاق على وجه العموم، وأما ما كان على وجه الخصوص فهو ما يقابل المحكم على وجه الخصوص، والمراد بذلك المنسوخ، وهذا ما يسميه العلماء ويألفون فيه الناسخ والمنسوخ.

وأما ما كان متشابهاً على وجه العموم فهو ما وقع فيه اختلاف عند العلماء في المراد به، وهو الذي يشار إليه في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [آل عمران:7] وهي المرادة في حديث النعمان بن بشير عليه رضوان الله تعالى هنا (وبينهما أمور متشابهات)، وجاء عند الترمذي في حديث النعمان هذا من حديث عامر بن شراحيل الشعبي عنالنعمان بن بشير قال رسول الله ﷺ: (لا يدري كثير من الناس أهي من الحرام أم هي من الحلال؟)، وكلام العلماء في هذا هو على هذا المعنى وهو المتشابه على وجه العموم لا على وجه الخصوص؛ فإن المتشابه على وجه الخصوص؛ هو محكم من وجه باعتبار معرفة أنه منسوخ وناسخه معلوم.

اختلاف العلماء في تحديد المتشابه

وعليه يقال: إن المتشابه عند العلماء قد اختلفوا في تحديده على أربعة أقوال:

القول الأول: قالوا: المتشابه هو ما تضادت فيه الأدلة.

القول الثاني: قالوا: ما وقع فيه خلاف بين العلماء، وهذا منتزع من القسم الأول.

القول الثالث: قالوا: هو المقلوب؛ وذلك أنه تتنازعه الإباحة والحظر، والفعل والترك.

القول الرابع: قالوا: المباح، وهذا أبعد الأقوال إلا إذا كان المراد بالمباح ما لا يستوي من جميع الوجوه، وهو ما يدخله العلماء في باب خلاف الأولى، ويمكن أن يدخل المباح في باب المتشابه من وجه إذا كان يتساوى من جميع الوجوه في ذاته، ويختلف من باب الفعل والترك لأمر خارج عنه إما لقرينة أو لمقصد وغير ذلك، فيدخل في باب المتشابه من هذا، والمتشابهات التي ذكرها رسول الله ﷺ لا يعني أنها مجهولة على العموم، بل إنه يعلمها العلماء، ومنها ما لا يعلمه إلا الله.

وقد يقول قائل: وهل ثمة شيء من التشريع جاء به القرآن ونزل في كلام الله، وجاء في كلام رسول الله ﷺ وليس لأحد على وجه الأرض معرفة به؟

يقال: نعم، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران:7] ثم الوقف عند جمهور العلماء وقراءة عبد الله بن مسعود على قوله: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران:7] ثم يبدأ ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران:7] وهذا التفسير المطلق، ومنه ما يشترك العلماء الراسخون في العلم بما وفقهم الله عز وجل من نظر فيفهمون ذلك المتشابه على قراءة بعض القراء بعدم الوقف، فيعلمون المتشابه، ولكن يقال: ثمة من الآي في كلام الله مما لا يعلمه إلا الله، ويبقى الاجتهاد فيه بلا دليل، كالحروف المقطعة في كلام الله، وإن كان فيها اجتهاد عن بعض السلف، ولكنه يقال: إنه ليس بمجزوم به، وإنما هو اجتهاد سائغ، كما في قول عبد الله بن عباس عليه رضوان الله تعالى فيما رواه ابن جرير الطبري من حديث علي بن أبي طلحة عن عبد الله بن عباس قال: ﴿ الم ﴾ [البقرة:1] و ﴿ طسم ﴾ [الشعراء:1] و ﴿ حم ﴾ [غافر:1] و ﴿ ص ﴾ [ص:1] و ﴿ ن ﴾ [القلم:1] و ﴿ ق ﴾ [ق:1] قال: قسم أقسم الله به، وهي من أسماء الله. وعامة العلماء على بطلان هذا القول، وهذا المعنى –لو صح إلى ابن عباس مع صحة إسناده– فهذه الحروف ليست من أسماء الله، وإن كان الإسناد ظاهره الصحة عن عبد الله بن عباس عليه رضوان الله تعالى.

فوائد من قوله: (وبينهما أمور متشابهات لا يعلمها كثير من الناس)

في قوله عليه الصلاة والسلام: (وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس) يعني: بين هذا الحلال والحرام الكثير أمور مشتبهة لا يعلمها كثير من الناس.

فضل العلم وأهمية التعلم

وهذا بيان لفضل العلم وأهمية التعلم، وأن العلم والمعرفة هي فيمن اصطفاه الله عز وجل من عباده؛ لهذا كانت الرحمة متلازمة مع وجود العلماء، وعدم وجود العلماء، يلزم منه الوقوع في المتشابه، والوقوع في المتشابه يلزم منه الوقوع في الحرام كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: (ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام) وإذا انتشر في مجتمع الحرام نال الناس الهلكة، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام كما في الصحيحين وغيرهما لما قالت له أم المؤمنين: (أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث) والمراد بالخبث هو مخالفة الكتاب والسنة وانتشار الحرام، وقال النبي عليه الصلاة والسلام كما في الصحيحين وغيرهما: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا) إذا لم يكن ثمة علماء أخذ أهل الجهالة، مكان العلماء، فيجعلون الحرام حلالاً، والحلال حراماً، فيحق حينئذ عقاب الله، ويقع حينئذ عذابه الذي حذر الله عز وجل منه، ويعلم أنه ما من حق وما من علم يضمحل في الناس إلا ويقع مكانه جهالة، وما من جهالة تزول إلا ويحل محلها علم ونور وهداية، وهذا على الاطراد وعلى وجه العموم في العلوم كلها.

معرفة العلماء للمتشابهات

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (كثير من الناس) دليل على أن الأقل هم الذين يعلمون هذه المتشابهات، وهم العلماء ومن وفقه الله عز وجل لمعرفة ذلك، كذلك قد يكون العلم أو بعض مسائل العلم عند بعض العلماء من المتشابه، وعند بعض العوام من المحكم البين الظاهر بحسب توفيق الله عز وجل له؛ لأنه ربما نظر في هذه المسألة وتبصر بدليلها وهو لم ينظر في تلك المسألة ولم يتبصر فيه، وربما نظر فيها ولم يوفق للصواب، وفي ذكر النبي عليه الصلاة والسلام –للمتشابه بعد الحلال والحرام دليل على قلته في مقابل وضوح وبيان الحلال والحرام؛ لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام كما روى ابن أبي عاصم في كتابه السنة، وكذلك الهروي في ذم الكلام من حديث العرباض بن سارية قال النبي عليه الصلاة والسلام–: (تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك) هذا هو الأصل في أحكام التشريع أنها ظاهرة بينة، وأما وجود المتشابه فهو عند كثير من الناس، لكنه ليس عند جميع الناس؛ ولهذا أمر الله عز وجل بسؤال أهل العلم؛ لقوله جل وعلا: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:43].

أهل الذكر عند أكثر المفسرين هم: اليهود والنصارى، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والمراد بهذه الآية ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ [النحل:43] فيما هو موجود عندهم في الكتاب فأقيموا عليهم الحجة إن كنتم لا تعلمون ما في الكتاب فاسألوا الكتاب يعني: اليهود والنصارى، ويدخل في هذا من باب أولى أهل العلم والمعرفة، العالمون بكلام الله وبكلام رسول الله ﷺ. إن كنتم لا تعلمون بأن القرآن هو الذكر، كما قال الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:9] وأهل الذكر هم أهل العلم وأهل القرآن، وقوله: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾

[النحل:43] يشترك فيه من جهل ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام من الأصول كاليهود والنصارى، أو ممن كان على منهج قويم، لكنه لم يعرف المسائل على وجهها، فيسأل أهل الذكر والمعرفة.

المتشابه اتباعه من صفة المنافقين وأهل الزيغ؛ لهذا إذا رئي الشخص من أقواله أو أفعاله أنه يتبع المتشابه من كلام الله وكلام رسول الله ﷺ ويدع المحكم فليعلم أن في قلبه زيغاً، وبقدر تعلقه بالمتشابه يكون الزيغ فيه.

الحذر من قربان المتشابه والتعلق به

وهنا لفتة مهمة ينبغي أن يتنبه لها: كلما كثر المتشابه لدى الإنسان قرب من أهل الزيغ، وكلما ظهر عنده المحكم كان من أهل الحق والتوفيق، وإذا كثر عند الإنسان المتشابه وعدم معرفة الحق –مع استعراض الأدلة– فليعلم أن في قلبه زيغاً، ودواؤه النظر في المحكم، واتباع البين من الدليل، وهذا مشاهد ملموس.

ومن طرائق أهل الزيغ والأهواء: تتبع الرخص وأقوال العلماء الذين يوافقون الأهواء، وعدم النظر في الدليل، وهذا لا نحب أن نطيل فيه لأننا سنتكلم عليه في محاضرة تامة يوم الثلاثاء القادم بإذن الله تعالى بعد صلاة العشاء بمحاضرة بعنوان: العزائم والرخص.

المتشابهات حذر النبي عليه الصلاة والسلام من الوقوع فيها، وظاهرها أنها يغلب ما التبس على الإنسان فيه الحلال والحرام، فهي من المتشابه وهي أقرب المعاني لهذا النص؛ لهذا حذر النبي عليه الصلاة والسلام –كما روى البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير– قال: (من ترك ما يشتبه عليه فهو لما استبان أترك) وهذا هو الورع، الورع هو أن يغلب الإنسان جانب الخوف على جانب الرجاء في باب المتشابهات.

أحوال الناس في العبادة

والإنسان في أحواله في العبادة يتقلب بين ثلاثة أمور: المحبة، والخوف، والرجاء، فهذه ثلاثة تصاحب الإنسان في كل عمل يعمله تقرباً لله، وينبغي للإنسان أن يكون فقيهاً بين هذه الثلاث، لا يغلب واحداً على آخر عند جماهير أهل العلم، نص على ذلك الحسن ومطرف وأحمد بن حنبل وابن عبد البر وابن عطية وسهل بن عبد الله التستريوغيرهم أنه ينبغي للإنسان أن يكون متساوياً في أعمال القلوب الثلاثة، فلا يغلب شيئاً على آخر، روى أبو نعيم في كتابه الحلية من حديث مطرف عن الحسن قال: الخوف والرجاء مطية المؤمن. أي: التي يرتحل بها فيستعين بها على قضاء أعماله، يقول ابن عطية : الخوف والرجاء كالجناحين للطائر، إن انفرد بواحد عن الآخر اضطرب وسقط، وينبغي أن يساوي بين هذا وهذا؛ فإن الله عز وجل يقول: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [الحجر:49–50] قال: فرجى وخوف. رجى الله عز وجل ببيان رحمته، وخوف ببيان عذابه، والإنسان في هذه المراتب على ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: أن تتساوى هذه الأعمال عنده من غير تفاضل، وهذا في حال استقامة حياته في كل الأعمال، فلا يغلب جانب الخوف على الرجاء، ولا يغلب جانب الرجاء على الخوف؛ ولهذا قال بعض السلف: من عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبد الله بالمحبة وحدها فهو زنديق، حتى يعبد الله بالرجاء والخوف والمحبة، ومن عبد الله بالخوف والرجاء والمحبة فهو مؤمن موحد.

الحالة الثانية: أن يغلب جانب الخوف، وهذا عند المتشابهات، وهذا الشاهد هنا عند وجود المتشابهات يغلب الإنسان جانب الخوف؛ وذلك لتأكيد وقوعه في الحرام كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: (فمن وقع في الشبهات وقع في الحرام) أي: لا بد أن يقع في الحرام، فإنه إن أجاز لنفسه الوقوع في الشبهات –والشبهات هي ما تردد بين الحلال والحرام من غير وضوح– فإنه سيأتي مرة تكون الشبهة بالحرام فيقع في الحرام؛ لهذا قال بعض العلماء: إن من وقع في الشبهات فصادف حراماً أثم وعوقب على ذلك، والشارع لا يلحق تكليفاً إلا بما يحاسب عليه، وهذا هو الظاهر، أن الإنسان إن وقع في المتشابهات من غير ظهور الدليل والتماسه أنه يأثم إن صادف حراماً؛ لهذا حذر النبي عليه الصلاة والسلام من الوقوع في المتشابهات، وحذر من ذلك أيضاً السلف كما روى البيهقي في شعب الإيمان من حديث يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال: كتب إلي بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ: أن من تعرض للشبهات فلا يلومن إلا نفسه. وقد رواه ابن عدي في كتابه الكامل عن عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى من قوله، المراد بذلك: فلا يلومن إلا نفسه، يعني: من لحوق العقاب بالآخرة، ولحوق العقاب في الدنيا، والعقاب في الدنيا قد بينه النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: (فمن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام).

اتقاء الشبهات

ثم قال: (فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه) أي: كف عن عرضه، وهذا من مقاصد الشرع أنه ينبغي للإنسان أن يغلب جانب التحريم عند المتشابهات حتى يسلم له عرضه. وهذا ما يسميه العلماء بوازع الطبع، وازع الشرع هو الأوامر والنواهي، ووازع الطبع هو ما ينفر منه الإنسان طبعاً: إما خشية مذمة، وإما رغبة بمدح، وهذا مقصد مشروع، لكنه يجوز انفراده في باب الحرام، ويحرم أن ينفرد به الإنسان في باب الواجبات والعبادات؛ لأنه في باب العبادات محرم، وفي المحرمات مقصد مطلوب؛ لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: (فقد استبرأ لدينه وعرضه).

الاهتداء في ترك الشبهات

وترك الشبهات هي هدي نبوي فعله خير الخلق، وربى عليه أصحابه، من ذلك ما رواه البخاري ومسلم من حديث طلحة بن مصرف عن أنس بن مالك عليه رضوان الله تعالى أن النبي عليه الصلاة والسلام (وجد تمرة في طريقه)، وفي حديث أبي هريرة (وجدها على فراشه) قال: (لولا أني أخشى أنها من الصدقة لأكلتها) وهذا من ترك الشبهات، مع أن أكل الطعام أو تركه خشية الفساد مقصد شرعي؛ لهذا قد روى ابن أبي شيبةمن حديث ميمونة أم المؤمنين عليها رضوان الله تعالى أنها وجدت تمرة في الطريق فأكلتها وقالت: إن الله لا يحب الفساد. يعني: إفساد الطعام وتركه حتى يفسد، مع ذلك غلب النبي

ﷺ جانب الورع في هذا فتركه، وكذلك أصحابه عليهم رضوان الله تعالى لما جاءه الرجل الذي قال له: إني تزوجت فلانة، وقيل لي: إني قد رضعت معها، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: (كيف وقد قيل؟) أي: دعها؛ احتياطاً وورعاً.

فوائد البعد عن الشبهات

وهذا فيه فائدتان:

الفائدة الأولى: الاستبراء للدين، وهذا مقصد أسمى. الفائدة الثانية: الاستبراء للعرض؛ خشية أن يقع الإنسان في عرض من تلبس بالشبهات، وترك الشبهة لها مسلكان، إما أن تكون شبهة عنده، وهذا ما يتأكد عليك تركه، وإما ألا تكون شبهة عندك وواضحة بينة، لكنها شبهة عند غيرك، فتتركها في الحالين، في الحالة الأولى أي: شبهة عندك استبراء للعرض والدين، والحالة الثانية أن تكون بينة عندك وشبهة عند غيرك استبراء للعرض، وهذا ظاهر فيما رواه البخاري ومسلم من حديث معمر عن الزهري عن علي بن الحسين (أن النبي عليه الصلاة والسلام كان معتكفاً، فجاءه أزواجه أمهات المؤمنين يزرنه في معتكفه فخرجن وبقيت صفية، ودارها قريبة من دار أسامة، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: امكثي حتى أخرج معك. فخرج النبي عليه الصلاة والسلام مع صفية، فلما كان في طريقه مر به رجلان من الأنصار، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: مهلاً إنهاصفية)، وهذا ليس بمتشابه عند النبي عليه الصلاة والسلام، بل هو متشابه عندهم، والنبي عليه الصلاة والسلام مستبرأ لدينه قطعاً، ولا يأتيه شبهة في هذا، فأراد النبي عليه الصلاة والسلام ألا يقع عند أحد من هؤلاء سوء ظن به فيهلكوا؛ لأن الظن بالنبي ليس كالظن بغيره، فالظن بالنبي كفر، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: (إنها صفية) خشية أن يقع في نفوسهم سوء ظن، قال بعض العلماء: والمراد بذلك أن غالب أزواج النبي عليه الصلاة والسلام في الحجرات عند المسجد، ولا يوجد من البعيد إلا صفية، ويغلب على الظن أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يخرج من معتكفه إلا مع أجنبية؛ لأنه أزواجه عنده، ولا توجد بعيدة إلا صفية بنت حيي عليها رضوان الله تعالى، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: (إنها صفية) استبراء لدين من كان يراه، وحفظاً لعرضه عليه الصلاة والسلام لدينهم؛ خشية أن يقعوا في الكفر بسوء الظن، وهذان المسلكان يجب فهمهما.

ويغفل كثير من الناس ويقولون: هذا عندي ليس من المتشابه، بل هو من المحكم البين، وأنا أفعل به، وإن وقع الناس في عرضي فلا أبالي، وهذا من الجهل؛ لأن الاستبراء للعرض –وإن كان من المحكم عندك– لكنه من المتشابه عند الناس، فيجب أن تستبرئ لعرضك؛ لأنك قد استبرأت لدينك وسلمت؛ فإن الاستبراء للعرض مقصد شرعي، وعليه يقال: يجوز للإنسان أن يترك المحرم لأجل ألا يسبه الناس، لكنه لا يؤجر على ذلك، ولا يعاقب على هذه النية لوجود مقصد شرعي؛ لهذا يقول العلماء: وازع الطبع كوازع الشرع بلا نكران في باب المحرمات، وفي باب التروك، لا في باب الأعمال التي هي داخلة في العبادات، فباب العبادات لابد فيها من العمل المجرد وإن صاحبها وازع من الطبع فلا حرج، ووازع الطبع عند العلماء أقوى من وازع الشرع؛ لهذا يجوز للزاني والفاسق وشارب الخمر وصاحب الكبائر أن يسافر مع أمه مسيرة أيام، لماذا؟ لوجود وازع الطبع في قلبه، ويجوز للفاسق أن يلي أمر ابنته ويزوجها؛ لوجود وازع الطبع في نفسه أعظم من وازع الشرع، وقد أجمع العلماء

على ذلك، نص عليه العز بن عبد السلام وابن رجب وابن القيم وغيرهم أن وازع الشرع دون وازع الطبع؛ لأن وازع الطبع قوي، وهذا يذكرها العلماء أحياناً في باب الإقرار في الجريمة وغيرها، يقولون: إن دافعه وازع الطبع لا تقابله شهادة الشهود وغيرها؛ لأنه شهادة الشهود دافعها وازع الشرع، والإقرار دافعه وازع طبع، ووازع الطبع مغلب على جانب وازع الشرع، ولا مقارنة بينهما، وهذا محل إجماع، ويطرد في جميع مسائل الدين إن اجتمعا.

وعليه فيما يخصنا هنا يقال: إن ما تعلق به وازع طبعي وكان من باب التروك وليس من العبادات المحضة جاز للإنسان فعله لهذا المقصد؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: (فقد استبرأ لدينه وعرضه).

الترغيب والترهيب بذكر الوازع الطبعي والوازع الشرعي

وعليه فيما يقابله يجوز لمنكر المنكر أن ينكر المنكر من باب تحريك الطباع لا من باب تحريك وازع الشرع، كأن يقول: اترك الخمر والكذب والغيبة والزنى والسرقة فأنت فلان بن فلان، وأنت من الأسرة الفلانية ونحو ذلك، يجوز شرعاً، لكن من جهة الأعمال لا يجوز أن تقول: صل فإنك فلان بن فلان، وأنت من آل فلان ومن البلد الفلاني ونحو ذلك ولا يليق بك هذا، هذا غير جائز إلا إن صاحبه وازع شرعاً، كأن يقول: إن الله فرضها عليك، وهي واجبة عليك وأنت فلان بن فلان، يجوز في باب العبادات، وأما في باب المحرمات فيجوز انفراد وازع الطبع من باب إنكار المنكر باتفاق العلماء، ولكن لا يتحقق الثواب في باب المحرمات إلا بوجود وازع الشرع، إذا ترك الإنسان الخمر، وترك الغيبة والنميمة والكذب والبهتان وشهادة الزور وغير ذلك حسبة لله وطلباً للأجر يثاب على ذلك، إن تركها خشية أن يذمه الناس ونحو ذلك لا يؤجر عليها، ولكنه يرتفع عنه العقاب باتفاق العلماء، أما من جهة الأعمال فهو باب خطير ومسلك عظيم يدخل في باب الشرك، ربما يدخل في باب الشرك الأكبر، وربما يدخل في باب الشرك الأصغر، وهو ما يسميه العلماء الرياء، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: (من رآى رآى الله به، ومن سمَّع سمَّع الله به) وعاقبته وخيمة كما جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (قال الله عز وجل: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن أشرك معي غيري تركته وشركه) .

الوقوع في الحرام لمن وقع في الشبهات

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (فمن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام) يعني: لا محالة؛ لأن الشبهة مترددة بين حل وحرمة؛ فإنه إن كان من عادته ذلك الوقوع في الشبهات فلابد أن يصادف حراماً حتى يتمكن من الحرام، وقيل: إن ثمة معنى ثانياً وهو أنه إن تجرأ على الشبهة لم يكن هيبة للحرام كهيبة الحرام قبل وقوعه في الشبهة حتى يقع في الحرام الصريح، أو تسول له نفسه أن هذا من الشبهة وهو من الحرام الصريح، وحينئذ يأثم كما مثل رسول الله ﷺ بذلك بقوله: (كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه) وهذا من عظيم تعليمه عليه الصلاة والسلام لأمته، ومن نظر إلى حاله عليه الصلاة والسلام في التعليم وجد أنه كثيراً ما يمثل مسائل العلم بأمور محسوسة مشاهدة، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول: (المؤمن للمؤمن

كالبنيان يشد بعضه بعضاً)، ويقول عليه الصلاة والسلام: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) تمثيل للجسد، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام: (بني الإسلام على خمس) أي: أنه كالبنيان الذي يشيده الإنسان، وهذا من باب تقريب مسائل العلم بالأمثلة المحسوسة، وهذا أسلوب نبوي في التعليم.

تشبيه من يقع في الشبهات

قال: (كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه) الرعاة يرعون في البوادي، والغالب أن الملوك تكون لهم حمى في الجاهلية والإسلام، ويستأثرون بالأماكن الجيدة عن غيرهم، إما لأبلهم أو غنمهم أو لأنفسهم، فيصطفون هذا المكان لهم من دون الناس، والراعي الذي محرم عليه أن يأتي هذا الحمى يأتي بإبله أو بغنمه ويرعى بعيداً عنه، وهو يطمع في هذا الحمى، وبين ما هو مباح له، وبين ما هو محرم له وهو ما هو للملوك موضع شبهة، إن احترز منه بعد عن الحرام، وإن تجرأ على ما يشك فيه وقع في الحرام، والمعالم لم تكن معروفة؛ فإن حدود السابقين تحدد بالأودية وبالجبال وبالأميال من غير حد فاصل كما هو في وقتنا، فالراعي يأتي ويطمع ويقول: إني لم أصل إلى حمى الملك، فيتجرأ شيئاً فشيئاً حتى يقع في الحرام فيناله العقاب، وهذا من باب التمثيل منه عليه الصلاة والسلام.

حكم الوقوع في المتشابه

قال عليه الصلاة والسلام مبيناً الحكمة من هذا التمثيل: (ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه) أي: أن المقصد من تحريم إتيان الشبهات هو الوقوع في المحارم بقوله عليه الصلاة والسلام: (ألا وإن حمى الله محارمه). وقد اختلف العلماء في حكم الوقوع في المتشابه على أربعة أقوال:

ذهب جماعة من العلماء –وهو قول أبي حنيفة، وقيل: إنه قول جمهور العلماء– إلى أن الوقوع في المتشابه محرم، وقال بعضهم: إنه مكروه، وتوقف بعضهم، وقال آخرون: إنه مباح، وهو داخل في خلاف الأولى.

والصواب: أنه لا يجوز للإنسان أن يقع في الشبهات وقوعاً يجعله ديدناً له، ومرجع ذلك على التفصيل، أي: الصواب في مسألة الوقوع في المتشابهات على التفصيل: أنه ينظر في حكم الفعل قبل ورود الشبهة، إن كان الأصل فيها الإباحة فهي مباحة، وإذا كان الأصل فيها التحريم فهي محرمة، وإذا كان الأصل فيها الكراهة فهي مكروهة، وهذا قد لا يستقيم في بعض الأحوال لكنه أغلبي، كأن يشتبه على الإنسان الطعام لا يدري أهو حرام أو حلال، أذبح على الشرع أم لا؟ يقال: قبل ورود الشبهة ما حكم هذا الطعام؟ يقال: الإباحة، والشبهة لا تغيره، والأصل فيه الإباحة، أما إذا كان الأصل فيه التحريم فيقال: بأنه محرم، كأن يكون الإنسان في بلد وثني، ووجد طعاماً مذبوحاً، ولا يدري من ذبح، يقال: إن الأصل أن الذي يذبحه وثني أنه حرام، وإن كان من جملة الشبهة التي لا يتبين فيها الإنسان، والورع ترك ذلك كله.

والورع من أعلى مراتب الدين، وهو باب دقيق يوفق له الإنسان، وربما دخل الإنسان فيه في باب المحرم، فيحرم على نفسه ما أحل الله؛ والنبي عليه الصلاة والسلام حينما جاءه بعض أصحابه وقد حرموا على أنفسهم النكاح، وحرموا على أنفسهم النوم، وأخذوا يصومون، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: (أما أنا فأنكح النساء، وأصوم وأفطر، ومن رغب عن سنتي فليس مني)، فالورع يفهم ويستضاء بفهمه بنور الشرع لا بذوق الإنسان، فلا يجوز للإنسان أن يدع المباح الظاهر من غير شبهة قائمة، ويجعله في دائرة المكروه، وهذا هو الغلو في الدين الذي حذر منه النبي عليه الصلاة والسلام، وحذر منه العلماء بتغليب جانب الخوف على الرجاء؛ ولهذا قال بعض العلماء: من عبد الله بالخوف وحده – أي: غلبه على الرجاء – فهو حروري. والحرورية هم الغلاة في الدين، أول ما ظهروا في بلاد حرورة، وظهرت منهم الخوارج الذين أمروا المرأة الحائض أن تصلي وتصوم تورعاً وخشية من ترك الواجب، وهذا مناقض للدين مع ظهور الدليل.

نكتفي بهذا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد.

الأسئلة

الحكم على حديث: ومن تتبع الصيد غفل

السؤال: ما صحة حديث: (من تتبع الصيد غفل)؟

الجواب: حديث: (من تتبع الصيد غفل) جاء من أربع طرق كلها معلولة، وأعله ابن أبي حاتم وغيره.

أحاديث الوضوء بفضل المرأة

السؤال: ما هو حال حديث استعمال فضل ماء المرأة؟

الجواب: في هذا أحاديث متضادة، لا أدري هل يريد الذي يدل على الجواز أو الذي يدل على الكراهية؟ أما الذي يدل على الكراهية فهو حديث لا بأس بإسناده، يرويه داود بن عبد الله الأودي عن حميد بن عبد الرحمن الحميري عن بعض أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وأما الجواز فقد جاء في حديث عبد الله بن عباس في صحيح الإمام مسلم.

حكم سماع القرآن وقت الأذان

السؤال: ما حكم سماع القرآن وقت الأذان؟

الجواب: مخالف للسنة، الأولى أن يجيب الإنسان الأذان، على خلاف عند العلماء المتأخرين في وجوب الإنصات والترديد،

والذي يظهر لي –والله أعلم– أن العلماء مجمعون على سنية الإنصات والترديد، وأما من قال بوجوبه وإن كان ظاهر المذهب فليس له سلف، فقد روى ابن المنذر في الأوسط عن عثمان بن عفان ما يدل على خلاف هذا.

حال رواية حنبل عن الإمام أحمد

السؤال: هل رواية حنبل عن الإمام أحمد ضعيفة؟

الجواب: لا، ليست بضعيفة حنبل بن إسحاق وهو ابن عم الإمام أحمد بن حنبل عليه رحمة الله، هو كغيره من أصحاب الإمام أحمد، لكن له مفردات قليلة قد استنكرها عليه بعضهم كبعض التأويلات في بعض الصفات.

حكم حديث صيام يوم الخميس

السؤال: ما صحة حديث صيام يوم الخميس؟

الجواب: صيام يوم الخميس جاء من حديث حفصة وأم سلمة وأنس وأبي هريرة وعائشة وغيرهم، وجلها معلولة.

حال قصة المرأة المتكلمة بالقرآن

السؤال: ما حال قصة المرأة المتكلمة بالقرآن؟

الجواب: لا أدري، إن كان يقصد القصة التي عن المبارك فهي ضعيفة.

حكم الأكل من طعام من اختلط ماله بحرام

السؤال: أحدهم يختلط ماله بالمال الحرام هل يجوز الأكل من طعامه؟

الجواب: النبي عليه الصلاة والسلام تدعوه المرأة المشركة اليهودية فطعم عندها، والله عز وجل وصفهم بأنهم أكالون للسحت، فهل يقال: النبي عليه الصلاة والسلام فعل ذلك؟ لا؛ لأن هؤلاء ليسوا ممن يأخذون بأحكام التشريع في تحريم الربا وغيرها، فأما إذا كان الإنسان متعاملاً بالربا، ويعلم أنه ربا فهذا هو التورع من عدم الأكل مما يعتقد أنه حرام، أما إذا كان لا يعتقد هذا الشيء إما المسألة خلافية وإما نحو ذلك فهذا يجوز.

حكم الخروج من المسجد بعد الأذان

السؤال: هل ورد في تحريم الخروج من المسجد شيء؟

الجواب: إن كان يقصد حال بعد الأذان نعم جاء حديث أبي هريرة وغيره، وتسميته بالفاسق.

حكم ترديد الآية في الصلاة

السؤال: هل من السنة ترديد المصلي للآية أكثر من مرة في الركعة الواحدة؟

الجواب: إذا كان في الفريضة فخلاف السنة، أما في النافلة فلا بأس بذلك، وإن كان لم يثبت عن رسول الله صلى الله وسلم، وأما ما رواه النسائي من ترديد النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة:118] فهذا ضعيف.

حكم توزيع الماء في المقابر بعد الدفن

السؤال: ما حكم الماء السبيل الذي يوزع في المقابر بعد الدفن؟

الجواب: الماء في الأصل صدقة؛ فقد روى أبو داود في سننه (أن النبي عليه الصلاة والسلام سئل أفضل الصدقة، قال: السقيا)، وجاء في مسند الإمام أحمد وغيره، فلا بأس بذلك يتناوله الإنسان يكون من جملة الإحسان.

نعم كيف؟ توزيع الماء؟ ما فيه بأس، إيش الإشكال؟ المقبرة لا يأتي دليل باستثنائها سواء كان في مقبرة أو غيرها، إذا كان الناس يطيلون الحفر ويطيلون الدفن ويقفون في الشمس، والناس ليس وضعهم كالسابق، كانت في السابق المقابر قريبة، والناس لا تتهيب المقابر كما يتهيبها الناس الآن، يضعونها في أقاصي الدنيا، كان في السابق يموت الميت ثم قد يدفن في غرفته ويبقى فيها، ويموت الآخر ويدفنه بجواره، ولا يتهيبون من الموت، بل يبقونها من باب التذكير ولم يركنوا إلى الدنيا؛ لهذا يقول الشاعر:

لكل أناس مقبر من فنائهم فهم ينقصون والقبور تزيد

الآن أصبحت المقابر في أقاصي الدنيا، ثم يقف الناس فيها وينتظرون الدفن، ثم يزدحمون أيضاً، الأمر فيه سعة، من قال بالبدعية والتحريم لا أدري ما وجهه!

الحكم على قول: إذا قرع الكأسان ببعضهما

السؤال: ما صحة حديث (إذا قرع الكأسان ببعضهما حرم ما فيها)؟

الجواب: هذا ليس بحديث، وإنما كلام.

حكم الأسهم المختلطة

السؤال: يقول: ماذا على الأسهم المختلطة؟

الجواب: لا أعرف عن السهم شيئاً.

الدرس الثاني

القلب هو مركز قيادة الجسد الذي يصلح بصلاحه ويفسد بفساده، والناس كما اختلفوا في صورهم اختلفوا في قلوبهم، فهناك قلوب سليمة وهناك قلوب مريضة، ومن أظهر أمراضها: القسوة التي تولد من عدة أسباب. وللقلوب أسباب تلين بها وتصلح مثل ذكر الله تعالى.

استقامة القلوب

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد جاء عن رسول الله ﷺ في المسند وغيره أنه قال: (التقوى هاهنا) والمراد بذلك أن أصل ما يتقي الإنسان من عمل مصدره القلب، وليس مراده عليه الصلاة والسلام أن التقوى في القلب لا تتعدى، وإنما التقوى التي يتقي بها الإنسان عذاب الله بترك المحرمات، وبالإتيان بالواجبات أصلها ومنبتها ومنشأها من القلب، وعليه لا يمكن لإنسان أن يرى شجرة مخضرة ويقول ويدعي أنها لا تسقى، ولا يمكن لإنسان أن يرى شجرة ميتة ويقول: إنه يسقيها، هذا كلام فاسد لا يستقيم بالنظر وعند أهل الخبرة، بل عند أدنى أهل الخبرة والمعرفة في هذا الباب.

وكذلك في نصوص الشرع بالنسبة للقلب والجوارح، وهو ظاهر بين؛ لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)، وهذا الفساد الذي أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام متعلق بسائر أنواع الذنوب من أعلاها وهو الإشراك بالله، ثم ما يليه من البدع، ثم الكبائر والصغائر،

متعلق بتقصير القلب وإقباله، وكلما كان قلبه معرضاً عن الله أقبل على المحرمات، وكلما كان مقبلاً على الله عز وجل أقبل على الطاعات وأعرض عن المحرمات؛ وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث قتادة عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (لا يستقيم إيمان المسلم حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلب المسلم حتى تستقيم جوارحه) فثمة تلازم.

ولا يتحقق الإيمان في قلب الإنسان على الدوام إلا بسلامة الشيئين: سلامة القلب، وسلامة الجوارح، وهو الاستقامة؛ لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام كما رواه الإمام مسلم من حديث الثقفي قال: (قل: آمنت بالله فاستقم) أي: استقم على هذا الأمر.

أقسام القلوب من جهة المحبة

والقلوب جاء ذكرها في كلام الله في مواضع كثيرة ذكر أقسامها وما يؤثر فيها، أقسامها في باب الخير، وأقسامها في باب الشر، وما يحيي هذه القلوب وما يميتها كل ذلك مذكور في كلام الله سبحانه وتعالى بين لمن تأمله.

وقد يذكر الله عز وجل القلب باسمه، وقد يذكره بغير اسمه كالفؤاد، كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء:36].

والله عز وجل لا ينظر إلى الصور ولا ينظر إلى الأعمال، وإنما ينظر إلى القلوب؛ لأن المنافق يعمل ويخالفه المخلص، فيتشابه في الظاهر مع المؤمن، ويختلف مع المخلص في الباطن، وقد لا يعمل لعجز وعدم قدرة فيتوافق مع المؤمن العاجز؛ والإنسان يأخذ بالظواهر؛ ولهذا كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار لتلبس أمرهم، وشدة مكرهم لحال الأمة، فكانوا في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم استحقوا ما يستحقه أهل الإيمان من حظوة ونصرة في الدنيا، فكانوا أشد من الكفار الذين قد نصب لهم العداء في الدنيا فكانوا دونهم يوم القيامة، كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [النساء:145] .

والقلوب ذكر العلماء أنها على أربعة أقسام:

الأول: قلب لا يحب إلا الله، وتفرد بحبه ولا يلتفت إلا إلى ما أحب الله، ويبغض ما يبغضه الله، ولا يتعلق بشيء غيره، فهذا قلب نادر الوجود، ويعز وجوده جداً، وهي قلوب الأنبياء والصديقين وكبار الأولياء الذين لا تعلق لهم إلا بالله سبحانه وتعالى، فتجردت قلوبهم محبة لله، فأحبهم الله عز وجل، فرضي عنهم ورضوا عنهم، وهؤلاء هم أهل الإيمان والكمال الخلص.

الثاني: القلوب التي لا تحب الله وأقبلت، وشغلت قلبها وشغلت نفسها بحب غيره، فأشربت حب غير الله من لذائذ الدنيا ومتاعها، وهذا كثير في الأرض من المنافقين الخلص، والكفرة الخلص.

الثالث: الذين أحبوا الله عز وجل، وغلبت عليهم محبة الله مع انصراف شيء يسير إلى الدنيا وملذاتها، وهذا يوجد في كل

القرون، وهم أهل الإيمان، لكنهم ليسوا أهل الكمال المطلق.

الرابع: الذين أسرفوا بالانصراف والإقبال إليها، وفي قلبهم شيء من محبة الله أو أصل المحبة، فكانوا أضعف الناس إيماناً، وهؤلاء منهم الذين يدخلون النار من أهل الإيمان، ومن أقلهم درجة آخر المؤمنين خروجاً من النار الذين في قلوبهم أصل الإيمان وهو أصل المحبة.

أقسام أعمال القلوب

ينبغي للإنسان أن يتبصر بأعظم أعمال القلوب، وأعظم أعمال القلوب هو المحبة فالرجاء فالخوف فالتوكل، وهذه أعظم أعمال القلوب على الإطلاق، وأعظمها وأحبها إلى الله عز وجل هو المحبة؛ وذلك أن المحبة هي أصل كل أعمال القلوب وكل أعمال الجوارح، ولا يمكن أن يعمل الإنسان عملاً لأحد وهو لا يحبه حتى وإن عمل في الظاهر فيكون قد نافق في باطنه، فكان كطريقة الأبالسة وأعوان الشياطين من المنافقين الخلص والعياذ بالله.

أما من جهة عمل القلب في باب الحلال والحرام فإن أعمال القلب تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: عمل سيئة بنفسه، وحسنة بنفسه، وإن لم يتلبس بعمل، فقد يعمل القلب عملاً ويثاب عليه بنفسه من غير لحوق أو طلب عمل، وهذا كسائر أعمال القلب من المحبة والرجاء والتصديق والإنابة والخوف وغير ذلك من أعمال القلوب، فهذه يثاب الإنسان على وجودها في قلبه، وإن كانت في الأصل تستلزم عملاً، لكنها من جهة الثواب يثاب عليها الإنسان على استقرارها ووجودها، ولا يلزم منها عمل من جهة تحقق الثواب، ويلزم من العمل وجود الإيمان واستقراره، لكنه يثاب على أصل وجود هذا العمل.

الثاني: عمل سيئة وحسنة لكنه باعتبار العمل، فإن كان الإنسان عاجزاً عن العمل فإنه يأثم بالسيئة، ويثاب بالحسنة، كمن رغب أن يعمل عملاً كالنفقة، هذا في باب الحسنات، لكنه عاجز عن الإنفاق، فهذا يثاب على عمله، وكالذي يرغب بعمل السيئة بشرب خمر وزنا وغير ذلك من فسوق، لكنه منعه مانع خوف من أحد، أو من رقيب وغير ذلك، فهذا يلحقه الإثم؛ لأنه ما ترك العمل لأجل الله، فهذا من عمل العمل السيئ الذي يعاقب عليه الإنسان.

الثالث: العمل الذي لا بد أن يتحقق معه عمل الجوارح؛ لكي يثاب عليه الإنسان ولكي يعاقب عليه، أما من جهة العقاب فهي الوساوس والخواطر التي عفا الله عز وجل عن وجودها في قلب الإنسان، فالإنسان معفو عنه في وجودها كالذي يفكر فيمن خلق رب العالمين، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: (إن الشيطان لا يزال بأحدكم، فيقول: من خلق كذا وكذا، حتى يقول: من خلق الله)، فهذا مما لا يأثم به الإنسان؛ لأنه وساوس لم يعمل بها الإنسان ولم ينسق إليها، كذلك في باب الخير، تلك الخواطر التي يرغب الإنسان في تحققها مع إمكان العمل ولم يعمل، فهذه لا يثاب الإنسان عليها حتى يوجد العمل، كالذي يود

أن يصلي وأن يصوم وأن يتصدق، وقد سلم الله عز وجل له جسده، ورزقه المال، لكنه لم يصل ولم يصم ولم ينفق، فهذا لا يثاب وهو المحروم من الأجر.

أقسام القلوب من جهة نتائج العمل

ومن جهة نتائج العمل على القلب جاء تقسيمها في كلام الله سبحانه وتعالى إلى ثلاثة أقسام، أي: بعد ورود العمل من الخير والشر:

القسم الأول: قلوب مريضة. القسم الثاني: قلوب موجفة إلى الله. القسم الثالث: قلوب قاسية.

القسم الأول: قلوب مريضة، وهي التي قد تمكن منها الشيطان بالشبهة، ويكون منها الكفار الخلص، ويكون كذلك منها المنافقون، وكذلك من في قلبه مرض من أهل الإيمان ممن قد وقع فيه الشبهات.

وهذه التقسيمات إنما كانت ثمرة لذلك العمل الذي قد عمله الإنسان أو أسرف في جنب الله به، فكان قلبه على هذه الحال.

والقلب المتقرب إلى الله، قريب منه، موجف له سبحانه وتعالى، فهذا قلب أهل العلم العالمين العارفين بكلام الله، وهم أكثر الناس خشية كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر:28].

وذلك أن الإنسان كلما تبصر بالشرع وعرف الأحكام عرف الحكم، وأن الله عز وجل أراد به خيراً فاطمأن قلبه وسكن كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج:53-54].

القلوب المخبتة والموجفة إلى الله هي العالمة بالله، والقلوب المريضة هي التي تعلقت بالشبهات، والقلوب القاسية هي التي كالحجارة هي قلوب المنافقين، أو التي قد أكثرت من الوقوع في المحرم حتى أصبحت قاسية.

أنواع البلاء الذي يرد على القلب

الابتلاء الذي يرد على القلب على أنواع:

النوع الأول: الشبهات، وهي الفتن والمحن التي تحل بالأمة، وكذلك المصائب والرزايا التي تنزل بالإنسان من ابتلاء واختبار وامتحان؛ لينظر الله عز وجل حال الإنسان، فيصيب الله عز وجل الإنسان بالحرمان: حرمان المال، وحرمان الجاه، وكذلك حرمان النسب وغير ذلك، فينظر الله عز وجل حاله، فربما كان من أشد أهل الأرض قسوة بهذا البلاء الذي يعرض له بشدة الفقر والصائب والهموم والأمراض، وفقد الأهل والأولاد وغير ذلك، فإن كان كذلك واستجاب ولم يصبر كان من القاسية

قلوبهم، وإن صبر وشكر ورضي كان من القلوب الراضية، القلوب الخاشعة، وهذا لا يكون في الغالب إلا لأهل العلم والموفقين.

وأما من جعل لهذه المصائب وهذه الشبهات منفذاً ومدخلاً إلى قلبه فقد يتشربها القلب حتى يصبح قاسياً؛ لهذا يقول النبي عليه الصلاة والسلام كما روى الإمام مسلم من حديث ربعي عن حذيفة قال: (تعرض الفتن على القلوب عوداً عوداً، فأيما قلب أُشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأيما قلب لم يشربها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تكون القلوب على قلبين: قلب أبيض، وقلب أسود مرباداً كالكوز مجخياً). والمراد بذلك هو قلب المنافق.

وهذه الفتنة التي أشار إليها النبي عليه الصلاة والسلام: (تعرض الفتن على القلوب) الفتن كما تقدم هي المصائب والشبهات التي ترد على الإنسان إما في دينه، وإما ما يبتليه الله عز وجل من مرض ووصب، فينظر الله عز وجل مقامه في أعلى مقام العبودية من جهة الصبر والرضا على أقدار الله، فإن صبر ثبته الله عز وجل على دينه، يقولحذيفة عن النبي عليه الصلاة والسلام في قلب المنافق: (يكون أسود مرباداً كالكوز مجخياً، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً)؛ وهذا هو الختم على القلب.

أما بالنسبة للمؤمن فقال: (فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض) وهذا هو الختم عليه من جهة التوفيق والسلامة، وهذا لا يكون إلا لمن اشتد به البلاء، ولا يمكن أن يمكن الإنسان في دينه إلا بعد ابتلاء؛ ولهذا قيللشافعي: هل خير للإنسان أن يبتلى فيمكَّن، أو يمكَّن ثم يبتلى؟ فقال الشافعي عليه رحمة الله: لا يمكَّن الإنسان حتى يبتلى. والمراد بالتمكين هو التمكين من جهة قوة الإيمان حتى يرد على هذا القلب من الفتن والشبهات والمصائب والكوارث التي تلحق الإنسان ثم يصبر، ثم يختم الله عز وجل عليه أنه لا يضره شيء؛ لهذا روى ابن أبي عمر في المسند من حديث سفيان بن عيينة عن عطاء بن السائب عن ابن أبي ليلى قال: أخبرني رجل عن رسول الله ﷺ فقال: (تختلف فيكم ملائكة الليل وملائكة النهار، فيصلون ويلتقون في صلاة الفجر وصلاة العصر، فتصعد ملائكة الليل بعد صلاة الفجر، وتنزل بعد صلاة العصر، وأما ملائكة النهار فتنزل بعد صلاة الفجر فتصلي معكم، وتصعد بعد صلاة العصر، فيقول الله عز وجل للملائكة: ماذا وجدتم عبادي؟ فيقولون: وجدناهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون، فتقول الملائكة: إن فيهم عبدك فلاناً نزل به بلاء، فوجدناه صابراً شاكراً، فيقول الله سبحانه وتعالى –وهو أعلم–: زيدوه في البلاء، فيزيدونه في البلاء، فيقول الله عز وجل: ماذا صنع عبدي؟ فيقولون: زدنا، فيقول الله عز وجل: زيدوه في البلاء، فيزيدونه في البلاء، فيقول: كيف وجدتم عبدي؟ قالوا: وجدناه صابراً شاكراً، فيقول: زيدوا عبدي في البلاء، فيزيدونه في البلاء، فيقول الله سبحانه وتعالى: زيدوه، فيقول الملائكة والله عز وجل أعلم بذلك: زدناه حتى نفدت زيادة البلاء، قال: كيف وجدتم عبدي؟ قالوا: وجدناه أصبر عبد وأشكره في السراء والضراء، قال: فأشهدكم أني أبقيته على ما هو عليه لا يضره شيء حتى يلقاني) قد رواه ابن أبي عمر بإسناد جيد في مسنده.

وهذا البلاء وهذا التمكين للإنسان بقوة الإيمان لا يمكن أن يتحقق للإنسان إلا بعد شدة البلاء الذي يأتيه، يميز الله عز وجل القلب الصابر من غيره، فالمؤمن لا يكون إلا عالماً بقدر الله أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فلا يطمع فيما عند الناس، فيقول: إنه لي، ولا يقول: إن ما لديه يغويه، فيعرض عن منهج الله سبحانه وتعالى، فيكون صابراً في الحالين

حينئذ يبقيه الله جل وعلا على الإيمان، فيختم الله سبحانه وتعالى له على البقاء.

وأما صاحب القلب القاسي، وهو القسم الثاني من أقسام القلوب فهذا الذي قد استجاب للذنوب والمعاصي واسترسل فيها، فكانت قسوة القلب كقسوة الجوارح، كقسوة اليد التي لا يستطيع أن ينتفع بها الإنسان، لا يستطيع أن ينتفع بها الإنسان في طعام، فتوصل الطعام إلى فيه، ولا يستطيع أن ينتفع منها الإنسان ببطش، ولا بزينة، وغير ذلك، كذلك القلب لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، فيكون قاسياً كالحجارة؛ لأنه قد استجاب لهذه الذنوب وهذه الفتن، فختم عليه، فيقع الإنسان في المعصية، ثم يقع فيها أخرى، ثم يقع في المعصية مرة أخرى حتى يشرب قلبه تلك المعصية مع إقراره أن هذه معصية، لكنه لا يستطيع أن يتجاوزها، فيشترك مع غيره من أهل الإيمان بالإقرار بهذه المعصية أنها معصية، ويختلف عن غيره بأنه لا يستطيع تركها؛ بسبب أنه قد ابتدأ وما ارتدع، ثم سوف على نفسه حتى كان قلبه قاسياً؛ لهذا يجب على المؤمن أن يعلم ما يلين قلبه ويعيده إلى الله ويقربه إليه، وهذه مذكورة في كلام الله سبحانه وتعالى.

أسباب قسوة القلوب

هنا يستحسن بنا أن نذكر ما يقسي قلب الإنسان، ويجعله قاسياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، فلا يدنو من الخير، وإن كان يقر بأنه خير، ولا يدع المنكر مع إقراره بأنه منكر.

السبب الأول: التعرض للشبهات

أول هذه الأمور التي تقسي القلب هي: التعرض للشبهات، وهذه الشبهات كثيرة جداً من التشكيك في الدين، والمبالغة بالنظر إلى تعليلات الأحكام الشرعية، وأن الله سبحانه وتعالى أمر بكذا فما العلة والحكمة من ذلك؟ وكأنه يحاسب الله على تشريعه، إن وافقت حكمة الله ما في قلبه انقاد، وإلا انقاد وفي قلبه قلة تسليم؛ ولهذا جعل الله عز وجل المسلمين له هم المؤمنين الخلص كما قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العظيم: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:65] هذا هي طريقة أهل الإيمان، والكمال الخلص الذين ينقادون باتباع تام من غير تشكيك ونظر إلى العلل، وهذا لا يعني أنه لا يجوز للإنسان أن ينظر في العلل والأحكام، بل ينظر ما نص فيها، وينظر كذلك ما استنبط من أحكام الشرع من تحليل أو تحريم، سواء كان في باب الأمر أو باب النهي على العموم من باب المحرمات والمكروهات، أو الواجبات والمندوبات، لكنه لا يعلق قلبه بذلك، ولا يجعل ذلك مناط تصديق وغير ذلك، فإنه إن جعله مناط تصديق واطمئنان وجد في قلبه من الشبهات ما وجد؛ لهذا امتدح الله سبحانه وتعالى في مواضع كثيرة الذين يسلمون لأمره؛ لهذا كان أصحاب رسول الله ﷺ يتفاوتون في هذا الباب، فكان أعلاهم مرتبة الصديقون كأبي بكر الصديق عليه رضوان الله تعالى، وإنما فاق من فاق؛ لأنه قد انقاد وأعطى التسليم المطلق للنبي عليه الصلاة والسلام، فصدقه بالمعجزات، وخوارق العادات، فكان أفضل الخلق بعد أنبياء الله سبحانه وتعالى.

والشبهات إن استرسل فيها الإنسان كان من أهل القلوب المريضة ومن أهل الزيغ، وهذا من علامات أهل الزيغ كما تقدم بيانه، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:7] يعني: ما تشابه من أحكام الشرع، وعليه إذا أراد الإنسان أن يعلم حال قلبه في باب الشبهات فلينظر إلى اقتناصه الرخص من أحكام الله وأحكام النبي عليه الصلاة والسلام، فإن وجد قلبه يتعلق بها –مع تركه الواضحات البينات– فليعلم أنه من أهل الشبهات، وليكن حذراً من هذا فربما طمس على قلبه؛ والعياذ بالله.

السبب الثاني: الذنوب والمعاصي

السبب الثاني مما يقسي القلوب: الذنوب والمعاصي، والإسراف فيها، كلما أسرف الإنسان بالذنوب ابتعد عن عمل الخير، وحرم الإقبال إلى الله عز وجل، والإكثار من الطاعات.

السبب الثالث: التقليل من عبادة السر

السبب الثالث: التقليل من عبادة السر، وهذا من أعظم ما يقسي القلب؛ ولهذا كلما قل عمل الإنسان في السر بعد عن الله، وكلما كثرت عبادة السر عنده مما لا يطلع عليه أحد كان من المقربين من الله، وإذا أراد الإنسان أن يعرف مقامه عند رب العالمين فلينظر إلى العبادة التي لا يعلمها أحد من خلقه إلا هو ورب العالمين، فإن لم يكن ليس لديه نصيب من عبادة السر فليعلم أنه إلى النفاق أقرب، وإن عدم عبادة السر فليعلم أنه من المنافقين الخلص، وإن كان لديه شيء وافر من عبادة السر فليعلم أنه من أهل الإيمان، وربما كان من أهل الكمال؛ لأن عبادة السر لا يمكن أن تتحقق في شخص في قلبه نفاق، وهذا معلوم مشاهد؛ لهذا قد امتدح الله سبحانه وتعالى الذين يؤدون العبادة خفية عن عيون الناس، وقال النبي عليه الصلاة والسلام –كما في حديث أبي هريرة في الصحيحين وغيرهما–: (سبعة يظلهم الله في ظلة يوم لا ظل إلا ظله) ، وذكر منهم عليه الصلاة والسلام (رجل قد أنفق بيمينه نفقة لا تعلم بها شماله)، وذكر النبي عليه الصلاة والسلام منهم (رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) قوله: (خالياً) يعني: أنه ليس معه ومع الله عز وجل أحد، ومن أعظم العبادة: البكاء من خشية الله الذي لا يمكن أن يوجد لدى إنسان في السر، فيبكي من خشية الله، فتسمه النار أبداً؛ لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: (عينان لا تمسهما النار يوم القيامة: عين باتت تحرس في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله) والمراد بذلك من خشية الله لا من خشية غيره، ولا رياء في غيره، ولا حباً في سمعة غيره، وكلما كان الإنسان متحققاً بهذا كان من أهل الإيمان الخالص.

ومن أراد أن ينظر إلى مقامه في العبودية لينظر إلى عبادة السر بجميع أنواعها من صلاة وصيام وصدقة وصلة رحم وغير ذلك، فإن كان له نصيب وافر فليعلم أنه من أهل الإيمان الصادق، وإن كان نظر إلى أعماله ولا يوجد عمل السر إلا وقد أطلع عليه الناس، أو عمله علانية فليعلم أنه إلى النفاق أقرب، بل إنه لو قيل: إنه لا يعلم مؤمن ليس لديه عمل سر لما كان ذلك بعيداً؛ لأنه لا يمكن أن يكون في قلب الإنسان شيء من الخشية ثم لا يعمل عملاً لا يراقب فيه إلا الله، وهذا معلوم مشاهد.

السبب الرابع: البعد عن العلم الشرعي

السبب الرابع مما يقسي القلوب: البعد عن العلم الشرعي وعن أسبابه؛ لهذا جعل الله سبحانه وتعالى العلماء هم أصحاب القلوب الخاشعة الخائفة، ويلزم من ذلك أنه بنقص العلم لدى الإنسان تنقص الخشية والخوف من الله، وبذلك تتحقق القسوة في قلب الإنسان؛ لهذا كانت الثمرة في العلم الخيرية كما قال عليه الصلاة والسلام: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) ومن لم يرد به خيراً معنى ذلك لا يفقهه في الدين؛ لهذا قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر:28]؛ لهذا فضل الله سبحانه وتعالى العلماء على غيرهم، فكان الصادق منهم مع النبيين والصديقين والشهداء.

السبب الخامس: مخالطة أصحاب القلوب القاسية

السبب الخامس: مخالطة أصحاب القلوب القاسية، وإن كان الإنسان من أهل العلم.

فكثرة المخالطة لشيء تنقل من أخلاقه وصفاته شيئاً كثيراً إلى مخالطه؛ فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: (الغلظة والقسوة في الفدادين أهل الوبر عند أصول أذناب الإبل من ربيعة ومضر) وقسوة القلوب يلزم منها الإعراض عن الطاعة، والتعليل في مثل قول النبي عليه الصلاة والسلام: (غلظ القلوب والقسوة في الفدادين أهل الوبر) وهم أهل الإبل، فهل المراد هذه المخلوقات بذاتها أم أن الأصل أن من اعتنى بها أعرض عن مواضع العبادة ولها، ولا يمكن أن يتحقق لديه تلك الأسباب من علم ومخالطة أهل الصلاح ونحو ذلك؟ يقال: إنه قد يجتمع هذا في الطاعة أي: تركها بانشغال الإنسان، وعليه يشترك مع هذا غير الإبل كالانشغال بالدنيا ونحو ذلك، وإن لم يكن الإنسان من أهل الإبل كالمبالغة في التجارة والانصراف فيها والإقبال إلى الدنيا يشترك مع غيره، وقد يكون تخصيص النبي عليه الصلاة والسلام بالإبل لأنها كانت هي تجارة العرب في الغالب حينئذ.

أسباب لين القلوب

وأما ما يلين قلب الإنسان ويقربه إلى الله فهو ضد ما ذكر، وقد جاءت النصوص في كلام الله سبحانه وتعالى وكلام رسول الله ﷺ في بيان ما تلين به القلوب وتطمئن به وتسكن من ذكر أعمال على سبيل التمثيل مما يدل على أن الطاعات هي مما يلين قلوب الإنسان، ونذكر منها:

السبب الأول: ذكر الله تعالى

ذكر الله، فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:28] فطمأنينة القلب وقربه من الخير وإقباله إلى الله يحصل بالذكر، والذكر هنا قيل: إنه شامل لجميع أنواع العبادة، ويدخل فيها بالأساس ما يتلفظ به اللسان،

وكذلك ما يدخل في باب الدعاء في باب دعاء المسألة ودعاء العبادة من جميع أعمال الجوارح.

والصلاة قد تسمى ذكراً، والتسبيح ذكراً، وكلام الله عز وجل القرآن الكريم ذكراً، وكلام رسول الله ﷺ ذكراً؛ ولهذا يقال: مجالس الذكر، فكلما قرب الإنسان منها لان قلبه؛ لهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه:14] أي: بذكر الله سبحانه وتعالى، فالصلاة هي من ذكر الله؛ لاشتمالها لجميع أنواع العبادة من دعاء المسألة ودعاء العبادة.

السبب الثاني: النظر في عاقبة الإنسان ومآله

كذلك أيضاً مما يلين القلب: النظر والتفكر بالعاقبة: بعاقبة الإنسان ومآله؛ فإنه إذا تأمل حاله ومصيره ومآله قرب من الله وأدبر عن الدنيا؛ لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: (كنتم نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها؛ فإنها تذكر بالآخرة) ، وجاء في رواية عنه عليه الصلاة والسلام: (وتزهد في الدنيا)؛ لهذا ينبغي للإنسان أن ينظر في العاقبة وما يذكره فيها، ومما يذكره فيها: النظر إلى حال الموتى وآثارهم؛ لهذا أمر الله سبحانه وتعالى بالضرب في الأرض في حال السالفين من الأمم السابقة ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الزخرف:25]؛ لهذا قص الله عز وجل على نبيه عليه الصلاة والسلام أخبار الأمم السابقة كثيراً في كتابه العظيم، وجاء ذلك في أحاديث قدسية كثيرة، ذكر أحوال الأمم السابقة فبها تلين القلوب، وبيان حالهم أنهم أشد بطشاً منا، وجعل الله عز وجل لهم من التمكين والقوة ما لم يجعله الله عز وجل لمن جاء بعدهم، ومع ذلك أهلكهم الله، ينظر إلى حال النبي سليمان عليه الصلاة والسلام وحال قومه، وما جعل الله عز وجل له من الآيات المعجزات مما شيدت له من البروج من زجاج وأبنية من أحجار وغير ذلك مما لا يكون في غيره، وسخر الله عز وجل له الجن الذين قد أوتوا من خوارق العادات مما لا يكون للبشر ومع ذلك هلكوا وما استطاعوا لأنفسهم نفعاً ولا ضراً.

وينظر الإنسان حال عاقبة الأمم السابقة، ويزور القبور ويعلم أن مآله إليها؛ لذلك شرع الله سبحانه وتعالى أسباب الوصول إلى هذه الغاية فشرع زيارة المقابر، وشرع الضرب في الأرض بالنظر إلى أحوال الأمم السابقة، وشرع الله عز وجل عيادة المريض بما فيه من تذكير بعاقبة الإنسان، وشرع الله سبحانه وتعالى النظر إلى تكوين الإنسان وخلقته وما فيه من ضعف في ابتداء أمره وفي آخر أمره، فقال الله عز وجل: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات:21] بما فيها من ضعف وهوان، ومع ذلك يعقب ذلك الضعف والهوان قوة، ثم يعقب تلك القوة ضعفاً، ثم يكون العدم وهو الهلاك.

وبهذا تعلم أهمية القلب وعناية الإنسان به، وأنه ينبغي أن يحرص على القلب؛ لأنه ملك الجوارح كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) كل ما جاء في الآيات وفي هذه الأقسام وذكر ما يلين القلب وما يقسيه كلها لكي يؤثر هذا القلب على عمل الجوارح، فمن رأى من شخص عملاً محرماً عن عمد فليعلم أنه في قلبه خلل؛ لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى رجلاً لا يخشع في صلاته قال: (لو سكن قلب هذا لسكنت جوارحه)؛ لأن قلبه معرض منشغل بغير الله، ولو أقبل على الله لسكنت الجوارح؛ لأن القلب يؤثر على الجوارح وهو ملكها، فإذا رأيت بالجوارح غلظة وقسوة فاعلم أن في القلب قسوة وغلظة، فينبغي

للإنسان أن يأخذ بأسباب لين القلب ويعمل بذلك.

الأسئلة

ما يحمل على قوله: (خالياً)

السؤال: هل يصح حمل قول النبي عليه الصلاة والسلام: (خالياً) على أنه لا يشعر به أحد من الحاضرين؟

الجواب: نعم، يدخل في الخلوة من دمعة عينه، وإن كان في حضرة ولا يراه أحد يدخل كذلك في باب الإخلاص.

تعدد أبواب الخير التي تلين القلب

السؤال: شخص فتح الله عليه من أموال، فهو ينفق منها سراً وجهراً، ولم يؤته عز وجل مزيد علم؟

الجواب: العلم له أسبابه، قد يأخذ بها الإنسان ولا يوفق إليها، ولكن أبواب الخير وما يلين القلب كثيرة، فليس العلم هو الباب الواحد المنفرد، لا، ذكرنا أسباباً كثيرة: الإقبال والإكثار من الطاعات، كلما أكثر الإنسان من الطاعات لان القلب، وكلما أكثر من المعاصي استمرأها القلب، وكثير من الناس يقع في المحرمات ويقول: أعلم أنها محرمة، ولديه من اليقين أنها محرمة، وأنه سيحاسب عليها، لكن لدى المؤمن الخالص الإيمان والعلم؛ ولذلك يبتعد عن المعصية ويزهد فيها لماذا؟ لأن ذلك ما علق قلبه بها، وهذا قد علق قلبه بها، فأشرب هذا القلب، فكان لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.

تفاوت ثواب الناس على حسب ما في القلوب من الإخلاص

السؤال: كيف يكون الثواب والعقاب على أعمال الجوارح في الفرائض والصلاة متوقفاً على ما يقع في القلب؟

الجواب: هذا يرجع إلى مسألة الإخلاص، إن كان الإنسان مخلصاً في صلاته، أو شابته شائبة رياء ونحو ذلك يكون بحسبه القبول والرد؛ لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: (وإنما لكل امرئ ما نوى) أي: ما في قلبه من إخلاص وإقبال على الله عز وجل، ربما يصلي شخصان متجاوران ركعتين، وبينهما كما بين السماء والأرض، هذا قلب مقبل مخلص كامل الإخلاص ترفعه هذه الصلاة إلى أعلى عليين، وهذا ليس بصاحب إخلاص ومعرض ربما تهوي به هذه العبادة –التي هي في الأصل قربة– في النار سبعين خريفاً، والعياذ بالله.

الجمع بين نقصان الإيمان وزيادته وحديث: (حتى يكون أبيض لا يضره شيء)

السؤال: كيف يمكن الجمع بين نقص الإيمان وزيادته وقول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث: (حتى يكون أبيض لا يضره شيء)؟

الجواب: هذا لا يمكن أن يتحقق للإنسان أن يكون قلبه أبيض لا يضره شيء إلا بعد شدة الابتلاء والتمحيص حتى يتمكن القلب، ثم يختم الله عز وجل على هذا القلب بأنه لا يتغير ولا يتبدل كما تقدم في حديث ابن أبي ليلى ، وذلك أنه عرف الله عز وجل في السراء والضراء فما ضره شيء، ختم الله عز وجل أنه لا يتغير ولا يتبدل، أو عرف مواضع الشر كلها وتبصر فيها وأعرض عنه وأقبل بأعمال الخير، حينئذ لا يتغير ولا يتبدل إلا ما شاء الله.

حكم صيام السبت والأحد

السؤال: هل يصح صيام يوم السبت والأحد؟

الجواب: يصومها الإنسان ولا حرج عليه.

القسم بين الزوجات عند الرجوع من السفر بعد القرعة

السؤال: إذا أراد الرجل أن يسافر وأقرع بين زوجاته فأخذ إحداهن في السفر، هل يدخلها في القرعة أم لا؟

الجواب: يقصد إذا كان الشخص يريد أن يسافر بزوجة، ثم بعد ذلك إذا رجع هل يقسم بين نسائه هذه المدة باعتبار أنه يترك هذه الزوجة المدة التي أخذها؟ لا، يبدأ القسم من جديد، وتدخل الزوجة التي سافر بها في القسم.

الموقف من قراءة الكتب المبالغة في تصوير الإخلاص

السؤال: بعض الناس يحذر من قراءة الكتب التي تتكلم عن الإخلاص، ويقول: الإكثار من قراءتها قد يؤثر على الإنسان؟

الجواب: العلماء بين مبالغ في هذا الباب حتى يدخل في دقائق والأولى أن لا يُدخل فيها، وأن ينبه على الأصول ويترك دقائق الأمور التي لا يمكن للإنسان أن يدركها، وممن يبالغ في هذا: أبو حامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين يكثر من هذا، كذلك الطيبي في بعض رسائله وغيرهم يبالغون في طرح أعمال القلوب والتوقي من الشيطان ونحو ذلك، فيطرحون أموراً هي دقيقة تفيد الإنسان، لكنها قد تدخل الإنسان في باب الوسوسة، مثال ذلك: يذكر أبو حامد الغزالي لكيفية التوقي من الرياء فيقول: إن الإنسان ربما يعمل عملاً فيرائي به، فيأتيه الشيطان إذا دعي إلى طعام، وقيل له: اطعم معنا. وكان صائماً، أمامه بابان: باب أن يقول: أنا صائم، فيدخل عليه الشيطان فيقول: إنك تحب المدح. أو يقول: لا أريد، فيقع في قلبه أنهم يقولون:

فلان صائم، أو أنهم يقولون: لا تكون صائماً فلا تشتهي فيقولون: فلان صائم، وأنت لست بصائم، هل تنفي تقول: لا لست بصائم، ثم يخطر في بالك أنهم يقولون: فلان ورع لا يريد أن يمدح في شيء ليس فيه، وإن سكت على الشيء مدح فيه، يدخل في وسوسة الإنسان ودوامة ثم لا ينتهي.

كذلك يقول: الإنسان إذا دعي إلى وليمتين يفكر بين هاتين الوليمتين: أيهما يحظى فيها بمرتبة ويهتم فيه يذهب إلى الأخرى، وإن ذهب إلى الأخرى، يقال: إنه ما ذهب إلى الأخرى إلا تورعاً، ويحب الخفية، وهذه ورطة توقع الإنسان في الوسوسة.

وكل عمل يعمله الإنسان لابد أن يأتيه الشيطان من منفذ، والإنسان لا يستطيع أن يتتبع الشيطان ويغلق عليه المنافذ، لكن يتوكل على الله عز وجل ويسأل الله عز وجل الإخلاص والإعانة؛ لذلك لا نقول: الإنسان لا يقرأ في أسباب الإخلاص وأهميته النصوص الواردة في هذا، بل نقول: في الشريعة وما جاء في النصوص في الكتاب والسنة كفاية، أما المبالغة والتتبع وسياسة الشيطان، ونحو ذلك ومداخله، هذا فيه ما فيه.

هناك كتاب لشخص مصري سماه: التنظيمات السياسية للدولة الإبليسية، وكتب على غلافه: إهداء إلى إبليس، بياناً لخططك وبياناً لمكرك ونحو ذلك، وأخذ يعقد على فصول مداخل إبليس وسياسته التنظيمية وكيف يفعل؛ وشيء من هذا القبيل، وفيه من السخف والتجني على نفس الكاتب أصلاً؛ فالإخلاص، أن تقبل الله عز وجل بالعمل، والخواطر الطارئة لا تحاسب عليها؛ باعتبار أن الله سبحانه وتعالى غفور رحيم لطيف بعباده، وتلك الخواطر قد يخطر في قلب الإنسان ما هو أشد من ذلك، كأن يقول: ربما مدحوني ونحو ذلك، وإذا سكت قالوا: إني صائم، وقالوا: لا يريد المدح ونحو ذلك، وإذا قال: أنا صائم مدحوني، فيبقى متردداً بين أمرين.

والله عز وجل أرحم بعباده من هذا؛ لأن الشيطان قد يأتي العبد فيقول له: من خلق الله، أو يجعله يفكر في ذات الله، حتى قال حذيفة: إنا لنفكر بأشياء نستحي منها، قال النبي عليه الصلاة والسلام: (ذلك صريح الإيمان) فوجود بعض هذه الأشياء يدل على إيمان الإنسان، لكن لا نقول: الإنسان يسترسل معها، نقول: يغلق هذا الباب ولا يفكر فيها، ويقول: لا إله إلا الله، ويكثر من التوحيد ونحوه.

الإكثار من القصص في الوعظ والاتعاظ

السؤال: بعض الناس يستشهد ببعض عبارات وتجارب علماء وحكماء العرب، هل يجوز مثل هذا؟

الجواب: لا حرج في ذلك، القصص مفيدة، لكن لا تغلب على الإنسان بحيث لا يتعظ الناس إلا بالقصص، فإذا غلب الإنسان القصص والعناية بها فيقرأ في التاريخ ويهمل الكتاب والسنة، بعد مدة سيجد في قلبه قسوة، ويجد أنه لا يتعظ بكلام الله ولا بكلام النبي عليه الصلاة والسلام، ويجد في قلبه من الإعراض ما يجد، لماذا؟ لأنه أشغل قلبه بهذه القصص، وهذا للأسف هو الغالب عند كثير من الناس لا يفهمون إلا بالقصص، نعم القصص لها حظوتها وعنايتها؛ لذلك الله سبحانه وتعالى

جعل القرآن على ثلاثة أقسام: قصص، وحلال وحرام، وتوحيد، القصص فلا تهمل، ولكن تكون في أبواب محدودة.

لبس الثوب إلى نصف الساق

السؤال: هل من السنة لبس الثوب إلى نصف الساق؟

الجواب: نعم، جاء في حديث حذيفة، وأصله في المسند، والسنة أن يكون من الكعبين إلى نصف الساق، وهذا ممدوح عن العرب حتى في الجاهلية يمدحون الرجل المشمر إزاره كما يقول الشاعر دريد بن الصمة:

قليل التشكي للمصيبات حافظ مع اليوم أدبار الأحاديث في غد

كمثل إزار ظاهر نصف ساقه صبور على الضراء طلاع أنجد

وكذلك في قول الشاعر الجاهلي:

وإني إذا داعٍ دعا لملمة أشمّرُ حتى ينصف الساق مئزري

وهذا ممدوح، وقد جاء تأكيده عن النبي عليه الصلاة والسلام في حديث حذيفة وغيره.

والتشمير دليل على البعد عن الترف، والبعد عن التكبر وأسبابه، وهو ممدوح في الشرع، ويكفي فيه ما جاء عن رسول الله ﷺ من أدلة، ولكن يقال: إنه ممدوح خلقاً وعادة، وكذلك جاء الشرع بتأكيده، ويحرم على الإنسان أن يسبل ثوبه تحت الكعبين.

الحكم على حديث: (خير الأسماء ما عبد وحمد)

السؤال: ما صحة (خير الأسماء ما عبد وحمد)؟

الجواب: لا أصل له.

حكم إطالة شعر الرأس

السؤال: ما الراجح في إطالة الشعر هل هو سنة؟

الجواب: سئل الإمام أحمد –كما في مسائل الخلال في كتاب الترجل عنه– فقال: سنة لو استطعنا لفعلناه، قال بعضهم: بأنه عادة، وهذا هو الأظهر، جاء عن رسول الله ﷺ أنه كان له جمة تبلغ شحمة الأذنين، وجاء الكتفين، وثبت عن رسول الله ﷺ

أنه حلق شعره كله كما في حجه عليه الصلاة والسلام، فالذي يظهر أنه من العادات.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد.